الفصل الحادى عشر
هل ستبقى البوشيدو ؟

قبل الحديث عن بقاء البوشيدو أو مستقبلها في التاريخ الحديث لابد من الدخول في مقارنات طويلة بين الفكر الأوروبي والفكر الياباني المتمثل في التمسك بعادات وفضائل البوشيدو، فمازالت العادات القديمة مصونة وغير مفسدة والمشاعر الإنسانية والأحاسيس المدفونة تحت شكليات الحياة الحديثة تختنق بفعل أسوار في قلوب اليابانيين، فبين اليابان العصرية واليابان القديمة يوجد أكثر من طريق قديم، حيث يوجد نوع من التوتر بين وجهين لشخصية قومية منقسمة.

اليابانيون مشغولين بالتفكير في واجهة اليابان العصرية وبين اليابان الساموراية المتحضرة، كعالم بلا مشاعر، عالم عقلاني علمي محاسبي رأسمالي، ذكوري، أما اليابان المخبأة فإن اليابانيين يرون فيها ما هو جمعي ومشبع وملهم وعاطفي وأنثوي أو بمعنى آخر كل ما يعتبرونه الجانب الأكثر صدقا وفطرية في طبيعة أنفسهم .

وقال ناتسومي سوسيكى Natsume sooseki 夏目漱石
أحد أدباء اليابان الحديثة – "أن اليابان لا تستطيع أن تتقدم دون أن تأخذ عن الغرب، ولكنها تتظاهر بأنها دولة من الدرجة الأولى، بل أن اليابان تبذل ما فوق طاقتها لكي تعد واحدة من هذه الدول، وهذا هو السبب في أن اليابان في جميع المجالات تبني واجهة لتظهر كدولة متقدمة وتخدع الآخرين فيما يتعلق بما خلف هذه الواجهة" .

وعندما يرى المرء اليابان الحديثة تنفق أموالا كثيرة للإبقاء على اليابان القديمة لكي تظل على حالها، فلا يملك إلا أن يشعر بقسوة مثل هذا العمل، لأنه يحول الريف إلى متحف كما يحول سكانه إلى معروضات أثرية الهدف منها الإبقاء عليها وإعطاء الآخرين وهما بأنهم لا يزالون مبقين على أصالتهم.

تبدو المفارقة صارخة مع اليابان بماضيها الخفي الهش لأن اليابانيين لا يتمتعون بمثل الثقة التي يتمتع بها الإيطاليون . فإن ما تبقى من ماضيهم لا يزيد عن كونه فكرة في الأساس، ولكن كيف يعبر اليابانيون عن تلك الفكرة؟ الفكرة التي ظلت محتفظة باحترامها على امتداد التاريخ الياباني والتي من المفترض أنها تميز اليابانيين عن سائر البشر هي : الروح اليابانية . وعلى الرغم من أن هذه الفكرة قديمة قدم اليابان، فإننا نستطيع أن نحدد " الروح" بمعناها الذي شاع بين القوميين الأوروبيين في القرن التاسع عشر، فهذا المعنى هو الذي

أستلهمه دعاة التحديث في عصر ميجي لإعادة التعريف بأنفسهم بالمصطلحات الحديثة، إنها كما يمكن أن يسميها الأوروبيون " عبقرية القومية "، إنها الحضارة والدم والأرض والعرق والمكانة، هذا الذي طالت تعبئة معنويات اليابانيين للاعتماد عليه من أجل أن يتعرفوا على هويتهم اليابانية.

وسأل أحد الصحفيين الفرنسيين الكاتب الصحفي (يوكيو ميشيما Yukio Mishima) قبل انتحاره بعامين في أواخر الستينات حينما زاره في منزله جنوب طوكيو فوجد المنزل على شاطئ البحر على طراز غربي فأبدى دهشته وقال : كيف تفسر حقيقة أن منزلك ليس فيه شيء ياباني مميز فرد عليه ميشيما "أن ما لا تستطيع أن تراه هنا هو الشيء الياباني المميز "، ونحن لا نريد أن نسترسل في وصف أو نعت الياباني بأنه كائنات بشرية غريبة ولكن هم بشر يهتمون بشئون دنياهم ويفزعون إذا شب حريق أو حدث زلزال مدمر فالنزعة للإحساس بأن كل شيء مؤقت ليس إلا وليد الواقع العملي مثله في ذلك مثل أشياء أحرى كثيرة.

يمكن أن نعرف الكثير عن الروح اليابانية من الطريقة التي بدأت بها الفكرة، والاسم القديم للروح اليابانية هو (ياماتوا داماشي) ولكلمة ياماتو وهي الاسم القديم لليابان أو احد أسمائها، وهي كلمة تطلق على الجبال اليابانية التي يقسم عندها الفضاء بين الأرض

والسماء ولكن كلمة (ياماتو) تعني في الحقيقة الدولة اليابانية التي أسسها جيمو Jimmu الإمبراطور الأسطوري الأول الذي أنحدر من أصل ألهي، وهكذا تعني الكلمة اليابان ذات الحضارة الإمبراطورية وذلك سبب يجعل القوميين ما يزالون يتعلقون بها، غير أن فكرة الروح اليابانية لم تولد بمولد دولة (ياماتو) ولكن ظهرت بعد عدة قرون، بعد أن كانت اليابان قد أخذت عن الخارج كثيرا من مقومات ثقافتها، أخذتها من الصين أولا عبر كوريا، ثم من الصين مباشرة فيما بعد .

وفي واحدة من الأساطير القديمة اقتطعت الآلهة جزءا من شبه الجزيرة الكورية وألحقوه بالجزر اليابانية، ويرجح أن في ذلك إشارة لإحدى موجات الهجرة الكبيرة القادمة من الأرض القارية وليس ثمة ما يفصل اليابان عن أراضي القارة الآسيوية، وكان لليابان ثقافتها وهي ثقافة المزارعين البسطاء الذين لهم جذورهم في الجماعات الريفية، وأكتشف الرحالة الصينيون أنه لم يكن في اليابان نظام أخلاقي متماسك، كما لم يكن ثمة تراتب اجتماعي أو تمايز بين الإنسان والطبيعة، وكانت لغتهم شديدة البساطة وكان اليابانيون يحبون الشراب والرقص، ويأكلون بأيديهم وأصابعهم من صحفا مصنوعة من الخيزران، تلك كانت اليابان القديمة قبل ظهور مملكة (ياماتو)، وفي القرن السادس الميلادي كان الأمير/ شوتوكو

(Shotoku) حاكم البلاد والوصي على العرش أول من أستعار الثقافة من الخارج وأعاد تخطيط اليابان وفقا للنموذج الصيني وأعطى اليابان أول دساتيرها، وأختار أسمها الجديد (نيبون Nippon日本) ومعناها أرض الشمس المشرقة، قدم شوتوكو للأمة اليابانية الروح اليابانية النابعة من رحم اليابان بعدما غرفت في الفيض الصيني، وهكذا تركزت أفكارهم في دواخلهم في محاولة لأكتشاف الكينونة اليابانية قبل أن تتحول (ياماتو) إلى نيبون وهذه الروح هي التي جعلت اليابانيين متفردين وبقيت الروح اليابانية لا تتبدل بتبدل الزمان أو المكان، بقيت مهتمة بالأخذ عن ثقافة الآخرين بإصرار لرفض كل مبادئ التغيير .وبينما يدعى اليابانيون أنهم محليون جدا فكريا ووجدانيا . تجد التأثيرات الكونفوشيسية تخترقهم تماما .

وحنين اليابانيين إلى الماضي أمر غير مستغرب، ولكن ل انكاد نعثر على أمم أخرى تستطيع أن تعي رؤية نفسها وهي يعاد خلقها وتشكيلها مرات عبر التاريخ من ياباى ياموتو إلى ياباى شوتوكو إلى ياباى الساموراي ثم ياباى عصر إدو وأخيرا ياباى العصر الحديث، وكل ياباى من هذه أشبه بطبقة طلاء تعلو سابقتها، لذلك يحتضن اليابانيون هذا الحنين وتلك العاطفة التي تهفو إليها أنفسهم وتتمتع بجماهيرية عظيمة لما في الروح القديمة من جمال فنون الساموراي التي

مازالوا يعلمونها لأولادهم في مهدهم وشبابهم، ولكن إلى أين يذهب اليابانيون بتعاليم البوشيدو، والى أين يتجهون بها ؟ السؤال منطقي ولكن الإجابة لابد أن تكون حذرة فإن اليابانيين يقفون على حافة عصر تنويرهم الياباني المتأخر وهم على وشك أن يصيروا أكثر شبها بالأوروبيين أو ربما ينتهج اليابانيون سبيلا مختلفا تماما عنهم .

وكتب (رولان بارت) الفيلسوف وعالم السيميولوجيا " علم الدلالات " عن العاصمة اليابانية القديمة فقال :أن لها مركزا والمفارقة التي أكتشفها (بارت) في طوكيو الحديثة هي وجود مركز فارغ يدور حوله كل شيء، هذه المفارقة موجودة منذ القرن التاسع، أي منذ تمكنت أسرة (فوجيوارا Fujiwara) من تأسيس عائلة ملكية وراثية استمرت حتى سنة١١٨٥، عندما تمكن الشوجون الأول من الاستحواذ على السلطة وبدأ بذلك العصر الإقطاعي، ومنذ ذلك التاريخ وعلى مر القرون أضفى الإمبراطور شرعية على الحكومة الدكتاتورية، المدنية والعسكرية، بينما بقي هو في عزلة باهتة متزايدة . وفضل طوكوجاوا هذا الوجود الإمبراطوري الباهت، الذي يمكن في ظله وضع أي إمبراطور تحت السيطرة بضوابط يحددونها، وكانت هذه الخلفية التي تجاوزها إمبراطور الميجي، وهو شخصية فارقة لم يخف مراميه، فقام بتغيير المشهد وتنحية أصباغ الوجه والواجهة والخروج من الظل، ولكن النخبة التي

خلقت اليابان الحديثة تحت مظلته ظلت شغوفة بجو الغموض القديم ومتعلقة به: حيث كان " الرجل الخفي فوق السحاب " أدائهم التنظيمية الكبرى حين شرعوا في بناء الدولة.

وأقطاب اليمين في اليابان مناورون سياسيون من الدرجة الأولى متمرسون في اللعب على كل المسارات الدائرية للأيديولوجيا والأساطير التي تحيط " بعرش الكريزنثيمم ".وذكر الموسيقى الراحل توشيرو مايوزمي (Mayuzmi)عند احتضار الإمبراطور هيروهيتو بأنه ليست له أي سلطات ولكنه مصدر لكل السلطات ومن الأمور اللافتة للانتباه في الحديث عن روح البوشيدو الطريقة التي تستخدم بها لإخفاء المشاعر والتمويه على الشخصية، ومن الأمثلة الموضحة لذلك، الدفاع عن فكرة الانتحار على طريقة (سيبوكو) له جذوره في الطاقة الحيوية لهذا البلد المقدس، وهو مزار للروح اليابانية "ياماتو داماشي"، وما يدعو للدهشة أن الإبقاء على هذه العادة جوهرة على جبين البلاد، وهو من أسباب سموها وتفوقها على البلاد الأخرى الموجودة فيما وراء البحار، والقضاء عليها يعتبر أمر لمجاراة تخنث الأمم الأجنبية . فهل الأمر حقا يتعلق بتخنث الآخرين ؟، الحقيقية أن تلك الروح اللينة الإنسحابية التي طال دفنها كانت أهم سمات اليابان قبل ظهور (ياماتو) والصورة الكلاسيكية التي تقدم لنا الوقفة المتصلبة، والسيف المشهر، والنظرة الشرزاء الحادة، والفم

المزموم المقوس لأسفل، والمظهر المتجهم الذي بدونه يفقد الساموراي هويته، وفي الألفية الثالثة من القرن الحادي والعشرين يمكن أن ترى هذه الصورة في الأفلام والإعلانات مثل إعلان عن (جيكيكان) خمر الساموراي وهو إعلان واسع الانتشار في طوكيو الحديثة.

لايصح أن نطلق على أمة بأسرها انها تعاني من عقد نفسية جماعية، ولا يصح الاندفاع وراء تحليلات لا جدوى منها، فاليابان أخذت سبل التي دفعتها إلى التقدم عبر التاريخ وإن كانت تخفي وراءها ملامح البدايات الأولى، إلا أن السؤال مازال قائما ولا مهرب منه، هل تبقى البوشيدو؟.

نشر الباحث الغربي المرموق المتخصص في اليابانيات (لافكاديو هيرن Lafcadio Hearn(١٨٥٠– ١٩٠٤) مقالا بعنوان: "الابتسامة اليابانية" "Japanese Smile" حاول فيه شرح لماذا يبتسم اليابانيون عند عودتهم من الجنازات، أو عند طردهم من الخدمة، أو حينما يتعرضون للضرب، فقال: أن هذه الابتسامة لا تخفي وراءها روح الخبث أو الاستهانة، وإنما وراءها الارتباك العميق، نفس الارتباك الموجود في النفس اليابانية منذ نحو ألف عام ورأى هيرن الفراغ الذي يحيط بالروح الاندفاعية اليابانية من أجل تحقيق الحداثة، وحنينهم إلى روح البوشيدو، هذا الحنين الذي يعود الآن بعد مضي قرن لتعويض ما فقدوه، إلا أن هذا الماضي الذي

ينزع الجيل الجديد اليوم إلى احتقاره، لابد أن تعود اليابان يوما للتطلع إليه، وعندها سيزرفون الدموع ندما عليه ،فالصورة المرسومة لليابان الجديدة والتي تستعير الكثير منها من خارجها تختلط بتشبث عنيد للروح منفردة، تظهر الانعكاس الحاد لعدم القناعة والرضا عن الحالة التي يحييها الجيل الحالي في اليابان.

إن نشر تعاليم البوشيدو وتقاليد الساموراي أصبحت في حقيقة الأمر عملية فاشلة، فقد ظلت الجهود متواصلة على مدى خمسة وسبعين عاما في هذا الاتجاه لكن المهمة لم تكتمل أبدا . ولم تسفر المحاولات إلا عن زيادة روح الانقسام والعناد بين اليابانيين، بل وفي داخل كل ياباني، هذا الانقسام بين الياباني بصفته يابانيا من الدرجة الأولى وبين فهمه نفسه بصفته إنسانا بالدرجة الأولى، اليابانيون يحاولون إعادة إحياء ماضيهم ولكن لا يرغبون العودة إلى الحياة فيه، خلاصة هذا أن اليابانيين ليسوا مجرد فلاحين بسطاء سذج يزرعون الأرز، إنما شعب أستعار من الغير أنظمة صارمة في الماضي وعاش فيها وأستعار من الغرب وخاض الحرب ضده، لهذا نرى أن اليابان ستدخل الزمن الجديد وهم أكثر شبها بأنفسهم وسوف يشعرون بالرضا والراحة تسرى تحت جلودهم وفي أعماق أنفسهم، بحرصهم على التمسك بالشرف ومبادئ النزاهة .والفيلسوف " تاونسند " تساءل عن الرسول الأوروبي والفيلسوف والسياسي الذي خلق

اليابان الحديثة؟، وأبان بما لا يدع مجالا للشك أن مصدر الحركة التي ولد عنها هذا الانقلاب والتطور في اليابان لم يكن نتيجة مؤثرات غربية وعوامل أجنبية بل من صنع الأمة اليابان نفسها

البوشيدو مسئولة عن النجاح الباهر الذي أصابته اليابان بعد الحرب الصينية اليابانية في سنة ١٨٩٤ فخلقت أمة أكثر أخلاصا وأشد حرصا وتولعا بقوميتها، وجعلتهم فخورين بأنهم أول الأمم التي بالغت وأسرفت في حبها وتفانيها للدفاع عن بلادها تمهيدا لإرتقاءها، بين كل الدول المتقدمة، والفضل حتما يعود إلى البطولة والقومية ومبادئ البوشيدو السامية التي تستحق الشكر والإعجاب

ربما فشل الإرساليات الدينية لليابان يعود إلى إغفال عقلية ومبادئ هذا الشعب وعدم الاهتمام على إيجاد برامج دعوة دينية مسيحية تتفق مع مبادئ الأمة اليابانية، لأن الإرساليات الدينية المسيحية عرضت أفكارها على أن الديانة المسيحية ديانة حديثة وأغفلت بصورة عقيمة عرض التعاليم الدينية بشكل يتلاءم والتكوين الأخلاقي للشعب الياباني.

لقد بدا واضحا وصادقا أن آثار أقدام الإمبراطور بدأت تخف بالتدريج كلما سار الزمان إلى الأمام وأصبح هناك نوعا من التباعد الموروث منذ القدم، وفي كتاب للسياسي/ كاكوي تاناكا-رئيس وزراء اليابان السابق " صانع الزعامات العليا السياسية في اليابان ما

بعد الحرب" وقدم الكتاب المشروع الكبير لإجراء إعادة صياغة كاملة للجزر اليابانية على النحو الذي يليق بأقوى رجال السياسية المحدثين . مس المؤلف أوتارا حقيقية في اليابان حيث شبهها بسفينة بلا دفة، وان سعى طوكيو المحموم لتحقيق التنمية الاقتصادية السريعة بأي ثمن يجعلنا نصف الديمقراطية اليابانية بأنها نوع من سياسة الفلوس. واليابانيون يضمرون نوعا من الأسى الدفين مصدره الأسلوب الذي انتهجوه لتحديث أنفسهم، والريف الذي أضمر الأسى والتأنيب الصامت بابتسامة ماكرة ونظرة صامتة من أجل الحصول على مأوى وضمير يستعيد فيه اليابانيون ما كانوا عليه يوما ويعيشونه من جديد .